(سورة الجن)

{ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً }

{ يَهْدِي إِلَى ٱلرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَداً }

قد مرّ أن في الوجود نفوساً أرضية قوية لا في غلظ النفوس السبعية والبهيمية وكثافتها وقلة إدراكها ولا على هيئات النفوس الإنسانية واستعداداتها ليلزم تعلقها بالأجرام الكثيفة الغالب عليها الأرضية ولا في صفاء النفوس المجرّدة ولطافتها لتتصل بالعالم العلوي وتتجرّد أو تتعلق ببعض الأجرام السماوية متعلقة بأجرام عنصرية لطيفة غلبت عليها الهوائية أو النارية أو الدخانية على اختلاف أحوالها.

سماها بعض الحكماء:

الصور المعلقة، ولها علوم وإدراكات من جنس علومنا وإدراكاتنا.

ولما كانت قريبة بالطبع إلى الملكوت السماوية أمكنها أن تتلقى من عالمها بعض الغيب فلا تستبعد أن ترتقي إلى أفق السماء فتسترق السمع من كلام الملائكة أي: النفوس المجرّدة، ولما كانت أرضية ضعيفة بالنسبة إلى القوى السماوية تأثرت بتأثير تلك القوى فرجمت بتأثيرها عن بلوغ شأوها وإدراك مداها من العلوم، ولا تنكر أن تشتعل أجرامها الدخانية بأشعة الكواكب فتحترق وتهلك أو تنزجر من الارتقاء إلى الأفق السماوي فتتسفل، فإنها أمور ليست بخارجة عن الإمكان، وقد أخبر عنها أهل الكشف والعيان الصادقون من الأنبياء والأولياء خصوصاً أكملهم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

وإن شئت التطبيق، فاعلم: أن القلب إذا استعدّ لتلقي الوحي وكلام الغيب استمع إليه القوى النفسانية من المتخيلة والوهم والفكر والعاقلة النظرية والعملية وجميع المدركات الباطنة التي هي جنّ الوجود الإنساني، ولما لم يكن الكلام الإلهي الوارد على القلب بواسطة روح القدس من جنس الكلام المصنوع المتلقف بالفكر والتخيل أو المستنتج من القياسات العقلية والمقدّمات الوهمية والتخيلية، قالوا: { إنّا سمعنا قرآناً عجباً يهدي إلى الرشد }

أي: الصواب وذلك هو تأثرها بنور الروح وانتعاشها بمعاني الوحي وتنوّرها

بنوره وتأثيرها في سائر القوى من الغضبية والشهوية وجميع القوى البدنية
{ فآمنا به } تنوّرنا بنوره واهتدينا إلى جناب القدس { ولن نُشْرك بربّنا أحداً }
أي: لن تمثله بمثال من جنس مدركاتنا فنشبه به غيره، بل نشايع السرّ في التوجه إلى جناب الوحدة، ولن ننزوي إلى عالم الكثرة لنعبد الشهوات بهوى النفس وتحصيل مطالبها من عالم الرجس فنعبد غيره.

{ وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلاَ وَلَداً }

{ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطاً }

{ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِباً }

{ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً }

{ وَأَنَّهُمْ ظَنُّواْ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَداً }

{ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً }

{ وأنه تعالى } عظمة { ربّنا } من أن نتصوّره مدركة فتكيفه فيدخل تحت جنس فيتخذ { صاحبة } من صنف تحته أو { ولداً } من نوع يماثله
{ وأنه كان يقول سفيهنا } الذي هو الوهم { على الله شططاً } بأن كان يتوهمه في جهة ويجعله من جنس الموجودات المحفوفة باللواحق المادية فيماثل المخلوقات صنفاً أو نوعاً { وأنّ ظننا أن لن تقول } إنس الحواس الظاهرة ولا جنّ القوى الباطنة { على الله كذباً } فيما أدركوا منه فتوهمنا أن البصر يدرك شكله ولونه والأذن تسمع صوته والوهم والخيال يتوهمه ويتخيله حقاً مطابقاً لما هو عليه قبل الاهتداء والتنوّر، فعلمنا من طريق الوحي أن ليست في شيء من إدراكه بل هو يدركها ويدرك ما تدركه ولا تدركه.
{ وأنه كان رجال من الإنس يعوذون } أي: تستند القوى الظاهرة إلى القوى الباطنة وتتقوّى بها { فزادوهم } غشيان المحارم وإتيان المناهي بالدواعي الوهمية والنوازع الشهوية والغضبية والخواطر النفسانية.
{ وأنهم ظنّوا كما ظننتم } قبل التنوّر بنور الهدى { أن لن يبعث الله } عليهم العقل المنوّر بنور الشرع فيهذبهم ويزكيهم ويؤدّبهم بالآداب الحسنة فيأتون

ما يشتهون بمقتضى طباعهم ويعملون على حسب غرائزهم وأهوائهم ويتركون سدى بلا رياضة ويهملون هملاً بلا مجاهدة.

{ وأنّا لمسنا } أي: طلبنا سماء العقل لنستفيد من مدركاته ما نتوصل به إلى لذاتنا ونسترق من مدركاته ما يعين في تحصيل مآربنا كما كان قبل التأدّب بالشرائع { فوجدناها ملئت حرساً شديداً } معاني حاجزة عن بلوغنا مقاصدنا وحكماً مانعة لنا عن مشتهياتنا قوية { وشُهباً } وأنواراً قدسية وإشراقات نورية تمنعنا من إدراك المعاني التي صفت عن شوب الوهم والوصول إلى طور العقل المنوّر بنور القدس، فإن العقل قبل الهداية كان مشوباً بالوهم، قريباً من أفق الخيال والفكر، مقصوراً على تحصيل المعاش مناسباً للنفس وقواها.

{ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَّصَداً }

{ وَأَنَّا لاَ نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً }

{ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَداً }

{ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَباً }

{ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰ آمَنَّا بِهِ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلاَ يَخَافُ بَخْساً وَلاَ رَهَقاً }

فلما تنوّر بنور القدس بعد عن منازل القوى ومبالغ علمها وإدراكها.

وهذا معنى قوله: { وأنّا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً } أي: نوراً ملكوتياً وحجة عقلية تطردنا عن الأفق العقلي وتحفظ العقل عن أن يميل إلى النفس فتختلط بنا وتنزل إلى ما ارتقينا إليه من المقاعد فنكتسب منه الآراء القياسية المؤدّية إلى موافقات البدن وأمان النفس.

{ وأنّا لا ندري أشرّ أُريد بمن في الأرض } أرض البدن من القوى فتبقى في المجاهدة والرياضة، ممنوعة من لذاتها، محجوبة عن مشتهياتها وما تهواها

{ أم أراد بهم ربهم } بالأحكام الشرعية والمناهي الدينية والأوامر التكليفية

{ رشداً } استقامة وصواباً وما يوجب صلاحها، فإن مقصد الشرع وكمال النفس أمر وراء مبالغ إدراك هذه القوى{ وإنّا منّا الصالحون } كالقوى المدبرة لنظام المعاش وصلاح البدن{ ومنّا دون ذلك } من المفسدات كالوهم والغضب والشهوة

العاملة بمقتضى هوى النفس والمتوسطات كالقوى النباتية الطبيعية { كنا } ذوي مذاهب مختلفة لكل طريقة ووجهة مما عيّنه الله ووكله به { وأنّا ظننا } أي: تيقنا أن الله غالب علينا لن نعجزه، كائنين في أرض البدن ولا هاربين إلى سماء الروح لعجز كل أحد منا عن فعل الآخر، فكيف عن فعل مبدأ القوى والقدر { الهدى } أي: القرآن تنوّرنا { به } وصدّقناه بامتثالنا أوامره ونواهيه كما قال عليه السلام:

« لكل أحد شيطان، إلاَّ أن شيطاني أسلم علي يديّ »

{ فلا يخاف } بخس حق من حقوقه وكمالاته التي أمكنت له وحظوظه أيضاً، فإن النفس وإن اطمأنت وتنوّرت قواها بحث لا تزاحم السرّ ولا تعلو القلب لم تمنع من الحظوظ بل وفرت عليها لتتقوّى بها هي وقواها على الطاعة وتنشط على الأفعال الإلهية حالة الاستقامة كتمتيع نفسه عليه السلام بنكاح تسع نسوة وغيره من التمتعات، ولا رهقة ذلّة وقهر بالرياضة أو بخس كمال ورهق رذيلة من الرذائل أو لحوق هيئة معذبة موجبة للخسوء والطرد.

{ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَـٰئِكَ تَحَرَّوْاْ رَشَداً }

{ وَأَمَّا ٱلْقَاسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَباً }

{ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَامُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُم مَّآءً غَدَقاً }

{ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَاباً صَعَداً }

{ وَأَنَّ ٱلْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلاَ تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَداً }

{ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً }

{ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّي وَلاَ أُشْرِكُ بِهِ أَحَداً }

{ قُلْ إِنِّي لاَ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلاَ رَشَداً }

{ منّا المسلمون } المذعنون لطاعة القلب وأمر الربّ بالطبع كالعاقلة

{ ومنّا القاسطون } الجائرون عن طريق الصواب كالوهم { فمن } انقاد وأذعن { فأولئك } قصدوا الصواب والاستقامة { وأمّا } الجائرون { فكانوا } حطباً لجهنم

الطبيعة الجسمانية { وأن لو استقاموا } من جملة الموحى لا من كلام الجنّ،
أي: لو استقام الجن كلهم على طريق التوجه إلى الحق والسلوك في متابعة السرّ السائر إلى التوحيد { لأسقيناهم ماء غدقاً } أي: لرزقناهم علماً جمّاً كما ذكر في إنباء آدم للملائكة{ لنفتنهم فيه } لنمتحنهم هل يشكرون بالعمل به وصرفه فيما ينبغي من مراضي الله أم لا؟ كما قال:

{ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ }[الأعراف، الآية:١٦٨]

{ ومن يعرض عن ذكر ربّه } فيبخل بنعمته أو يصرفها فيما لا ينبغي من الأعمال وينسى حق نعمته { يسلكه عذاباً صعداً } بالرياضة الصعبة والحرمان عن الحظ حتى يتوب ويستقيم أو بالهيئة المنافية المؤلمة ليتعذب عذاباً شديداً شاقّاً غالباً عليه.
{ وأنّ المساجد } أي: مقام كمال كل قوة هو هيئة إذعانها وانقيادها للقلب الذي هو سجودها أو كمال كل شيء حتى القلب والروح { لله }
أي: حق الله على ذلك الشيء بل صفة الله الظاهرة على مظهر ذلك الشيء
{ فلا تدعو مع الله أحداً } بتحصيل أغراض النفس وعبادة الهوى وطلب اللذات والشهوات بمقتضى طباعكم، فتشركوا بالله وعبادته.
{ وأنه لما قام عبد الله } أي: القلب المتوجه إلى الحق الخاشع المطيع { يدعوه } بالإقبال إليه وطلب النور من جنابه ويعظمه ويبجله { كادوا يكونون عليه لبداً } يزدحمون عليه بالاستيلاء ويحجبونه بالظهور والغلبة.
{ قل إنما أدعو ربّي } أوحده ولا ألتفت إلى ما سواه فأكون مشركاً.
{ قل إني لا أملك لكم ضرّاً ولا رشداً } أي: غيّاً وهدى، إنما الغواية والهداية من الله إن سلطني عليكم تهتدوا بنوري وإلا بقيتم في الضلال ليس في قوّتي أن أقسركم على الهداية.

{ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَداً }
{ إِلاَّ بَلاَغاً مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَالاَتِهِ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ
فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَآ أَبَداً }
{ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِراً وَأَقَلُّ عَدَداً }
{ قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَداً }
{ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَداً }
{ إِلاَّ مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً }
{ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُواْ رِسَالاَتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ
وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً }

{ قل إني لن يجيرني } اعتراض مؤكد لنفي الاستطاعة والقدرة عليهم، أي: لن يجيرني أيضاً { من الله أحد } إن أرادني الله بضرّ أو غواية فيسلطكم أو غيركم عليّ { ولن أجد من دونه ملتحداً } ملجأ وملاذاً ومهرباً ومحيصاً إن أهلكني أو عذّبني على أيديكم أو غيركم، وإذ لا أملك النفع والضرّ والهداية والغواية لنفسي فكيف أملك لكم شيئاً منها؟.

{ إلاّ بلاغاً } أي: أن أبلغكم بلاغاً صادراً من الله { و } أبلغكم { رسالاته } من معاني الوحي وأحكام الحق، أي: لا أملك إلاّ التبليغ والرسالات فهو استثناء من معمول أملك. وقوله: { ومن يعص الله ورسوله } منكم فلم يقبل نوره ولم يسمع ما يبلغه رسول العقل { فإنّ له نار } الطبيعة المحرقة باستيلائها عليه أبداً { حتى إذا رأوا } أي: يكونون عليه لبداً يستولون عليه بالازدحام حتى إذا رأوا { ما يُوعدون } في الرسالات من وقوع القيامة الصغرى بالموت أو الوسطى بظهور نور الفطرة واستيلاء القلب عليها، أو الكبرى بظهور نور الوحدة فسيظهر ضعفهم وقلّة عددهم وخمود نارهم وانطفاؤها وكلالة حدّهم وشوكتهم بإحدى الأحوال الثلاث ولا ينصر بعضهم بعضاً لانقهارهم وعجزهم وفنائهم فيعلمون

{ أنهم أضعف ناصراً } من القلب { وأقل عدداً }وإن كادوا أن يقهروه بالكثرة واستقلّوه بالنسبة إلى عددهم فإن الواحد المؤيد من عند الله أقوى وأكثر

{ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ }

[الصافات، الآيات:١٧١ - ١٧٢]،

{ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ }

[آل عمران، الآية:١٦٠].

{ قل إن أدري أقريب ما توعدون } في القيامة الصغرى من الفناء والدخول في نار الطبيعة عند البعث لعدم الوقوف على قدر الله أو في الأخريين من الموت الإرادي والفناء الحقيقي لعدم الوقوف على قوة الاستعداد وضعفه فيقع عاجلاً، أم ضرب الله له غاية وأجلاً هو { عالم الغيب } وحده { فلا } يطلع

{ على غيبه أحداً * إلاَّ من ارتضى من رسول } أي: أعدّه في الفطرة الأولى وزكّاه وصفّاه من رسول القوة القدسية { فإنه يسلك من بين يديه }

أي: من جانبه الإلهي { ومن خلفه } وجهته البدنية { رصداً } حفظة أما من جهة الله التي إليها وجهه فروح القدس والأنوار الملكوتية والربانية، وأما من جهة البدن فالملكات الفاضلة والهيئات النورية الحاصة من هياكل الطاعات والعبادات يحفظونه من تخبيط الجنّ وخلط كلامهم من الوساوس والأوهام والخيالات بمعارفها اليقينية ومعانيها القدسية والواردات الغيبية والكشوف الحقيقية.

{ ليعلم أن قد أبلغوا } ليظهر علمه تعالى في مظاهر الرسل مما كان مكنوناً في استعدادهم فيكملوا وكملوا بما أمكنهم حمله من رسالاته وإبلاغه

{ وأحاط بما لديهم } من العقل الفرقاني والمعاني المكنونة في فطرتهم أزلاً فأظهرها { وأحصى كل شيء } أي: ضبط كل شيء بالعقل الفرقاني وإبراز الكمال التام جملة وتفصيلاً كلياً وجزئياً، أو ضبط عدد كل شيء مطلقاً في القضاء والقدر كلياً وجزئياً، والله تعالى أعلم.